القطب الشمالى ساحة صراع جديدة بين القوى الكبرى

(مجلة الشروق، دار الخليج، الشارقة، ١٠ أكتوبر ٢٠١٩)

د. نورهان الشيخ

إن أبرز ما يميز النظام الدولى الراهن هو تجاوز التنافس بين القوى الكبرى الأطر التقليدية وإنطلاقه لساحات جديدة غير مسبوقة من أهمها الفضاء والقطب الشمالى. وترجع بداية الاهتمام بالمنطقة القطبية الشمالية إلى منتصف عقد التسعينات حين تم تأسيس"مجلس القطب الشمالي" عام ١٩٩٦ بمبادرة من فنلندا كمنتدى يضم الدول المطلة عليه، روسيا والدنمارك والسويد وفنلندا والولايات المتحدة وكندا والنرويج وإيسلندا، بهدف حماية الطبيعة النادرة للمنطقة فى ضوء التغيرات المناخية، فلم تكن المنطقة قد دخلت بعد حلبة الصراع والتنافس بين القوى الكبرى. وقد كان قيام موسكو بوضع العلم الروسي في قاع المحيط المتجمد فى أغسطس ٢٠٠٧ بمثابة إطلاق للتنافس الدولى حول المنطقة، فما أن بدأت موسكو اتخاذ خطوات لاستغلال ثرواتها الكامنة تحت الجليد وإرسال بعثة علمية روسية لإثبات أن سلسلة جبال لومونسوف في قاع المحيط هي امتداد جيولوجي لروسيا بما يمكنها من إعلانها أراض روسية وفق معاهدة قانون البحار التابعة للأمم المتحدة، حتى تغيرت النظرة الدولية، والأمريكية على وجه الخصوص، للمنطقة لاسيما مع دخول الصين إلى الساحة القطبية وقبولها عضو مراقب فى مجلس القطب الشمالى رغم إنها ليست من الدول المطلة عليه.

ومن المعروف أن هناك ثروات ضخمة كامنة تحت ثلوج القطب الشمالى الكثيفة تقدر بحوالى ١٣% من موارد النفط و ٣٠% من موارد الغاز غير المكتشفة في العالم، ويشكل إنتاج النفط والغاز في هذه المنطقة حاليا عشر الإنتاج العالمى، إلي جانب احتياطات كبيرة من اليورانيوم والمعادن النادرة والماس والذهب والبلاتين وغيرها، كما يرى البعض أن الممر البحري القطبى يشكل معبراً بين المحيطين الهادى والأطلسي، وطريقاً تجارياً دولياً يصل آسيا بأوروبا يمكن أن يصبح بديلاً لقناتي السويس وبنما فى القرن الحادي والعشرين حيث يعد أقصر ٥ آلاف ميل بحري وأقل كلفة للوقود بنحو مليون دولار وأقصر وقتا بـ ٤٠ يوما مقارنة بالطريق الجنوبي عبر قناة السويس، يساعد على ذلك تقلص مساحة الرقعة الجليدية فيه بسبب التغيرات المناخية،

وتطوير أساطيل كاسحات الجليد مما يتيح فرصة الإبحار عبره على مدار العام وليس فقط فى الصيف كما كان الحال من قبل.

فى هذا السياق تحاول واشنطن عرقلة ما تراه تمدداً روسياً وصينياً فى المنطقة. فقد اتهم وزير الخارجية الأمريكي، مايك بومبيو، فى ٧ مايو الماضى، روسيا بالسعي إلى الهيمنة على تلك المنطقة من خلال تعزيز وجودها العسكري وفرض إجراءات على السفن العابرة، وصفها بـ"غير القانونية" وأنها "جزء من السلوك العدواني الشامل لروسيا في القطب الشمالي." وكانت الحكومة الروسية قد وضعت مجموعة من القواعد اللازمة لمرور السفن الحربية الأجنبية على طول الطريق البحري الشمالي الجديد الذي أثبتت روسيا للأمم المتحدة عائديته لها، تتضمن ضرورة إخطار السفن الحربية الأجنبية السلطات الروسية بوجهات سيرها قبل ٤٥ يوما من عبورها الدائرة القطبية الشمالية، ليخصص الجانب الروسي ملاحيه ليشرفوا على وجهة السفن وتوجيهها بما لا ينتهك حرمة المياه الروسية. هذا فى الوقت الذى تسعى فيه الولايات المتحدة إلى تدويل طريق بحر الشمال وجعله شريان نقل متاحا للمجتمع الدولي بأسره وليس طريقا روسيا للنقل.

كما يثير الأسطول الروسى من كاسحات الجليد، والذى يعد الأضخم على الإطلاق، وإمتلاك موسكو مقومات الحركة الآمنة فى المنطقة مخاوف الولايات المتحدة حيث تمتلك روسيا نحو ٤٠ كاسحة جليد بينما لا يوجد لدى الولايات المتحدة إلا سفينة واحد من هذا النوع الثقيل، يمكنها التوجه إلى القطب الشمالي والقطب الجنوبي، وهى الكاسحة Polar Star أي (نجمة القطب) التي يزيد عمرها عن ٤٠ عاما وانتهت صلاحية خدمتها منذ زمن. أما كاسحة الجليد الأخرى "هيلي"، التي بنيت في عام ٢٠٠٠، فهي قادرة على أداء وظيفة علمية فقط وليس أكثر. ووفقاً لصحيفة Business Insider تراجع الجيش الأمريكي فى ديسمبر من العام الماضى عن إجراء تدريبات كان قد خطط لها في القطب الشمالي بسبب افتقاد قواته لكاسحات جليد فعالة، وتخوفه من الاضطرار لطلب مساعدة روسيا في حال علقت وحداته في جليد القطب.

كذلك، هاجم بومبيو الصين واتهمها بالسعي لفرض وجود عسكري في القطب الشمالى وربط المياه الدولية هناك بالمسار البحري لطريق الحرير. وكانت الصين قد أعلنت عام ٢٠١٨ استراتيجيتها القطبية الشمالية الجديدة المسماة "طريق الحرير القطبي"، ووصفت نفسها بأنها "دولة قريبة من منطقة القطب الشمالي"، معبرة عن رغبتها في ربط مشروعها "الحزام والطريق" بمنطقة القطب الشمالي عبر استثمارات في الدول الواقعة هناك. كما أبدت الصين اهتماما بتوسيع

حضورها في المنطقة من خلال نشاط سفن الأبحاث، ونيتها بناء كاسحة جليد نووية تضاف إلى كاسحتي الجليد العاديتين اللتين تمتلكهما بكين. كما أطلقت الصين فى ١٢ سبتمبر الماضى ٣ أقمار صناعية، بما في ذلك قمر صناعي صغير يسمى BNU-1 لرصد منطقتي القطبين الشمالي والجنوبي.

عكست مخاوف واتهامات بومبيو توجهاً سائداً لدى المؤسسات الأمريكية المختلفة لتعزيز هيمنة واشنطن فى منطقة القطب الشمالى وصل حد تقدم الرئيس الأمريكى دونالد ترامب فى ٢٠ أغسطس الماضى بعرض لشراء جزيرة جرينلاند الضخمة والهامة من الناحية الاستراتيجية، والغنية بالموارد الطبيعية، والمناطق القطبية الشمالية التابعة لها بهدف زيادة حصة الولايات المتحدة في الجرف القطبي الشمالي، وردع الصين وروسيا في الصراع على المنطقة. ولواشنطن قاعدة جوية كبيرة مستأجرة في النقطة الشمالية من جرينلاند، وإذا قامت بتوسيع الأراضي المستأجرة لتشمل الجزيرة بأكملها، فستصبح جرينلاند عمليا "أكبر حاملة طائرات أمريكية" في العالم. وقد رفضت الدنمارك العرض وأكدت رئيسة الوزراء، متە فريدريكسن، "أن الجزيرة ملك ليس للدنمارك، بل لسكانها، وأنها ليست للبيع".

إلا إن الولايات المتحدة، التى أصبحت دولة قطبية بعد شرائها آلاسكا من روسيا القيصرية عام ١٨٦٧، مازالت بعيدة عن المنافسة الحقيقية لروسيا حيث تظل الأخيرة هى صاحبة أطول جرف قاري قطبى بإمتدادها الشاسع فى المنطقة القطبية، ولها اليد الطولى تنموياً وعسكرياً فى المنطقة. وفى سبتمبر ٢٠٠٨ أقر مجلس الأمن القومى الروسى مبادئ سياسة الدولة في منطقة القطب الشمالي حتى عام ٢٠٢٠ وما بعدها، والخطة التنفيذية لهذه المبادئ، معتبرة أن توسيع الحضور الروسى فى مختلف المجالات بمنطقة القطب الشمالي مسألة أمن قومي ليس فقط لثرواته الضخمة، ولكن لمواجهة خطط حلف شمال الأطلسى "الناتو" لزيادة نشاطه العسكري وفرض سيطرته عليها، وخطورة تحركات واشنطن فى المنطقة والتى عبر عنها صراحة الرئيس بوتين بقوله إن "مدة وصول الصواريخ الأمريكية من حوض بحر بارنتس إلى موسكو لا تتجاوز ١٥ أو ١٦ دقيقة، مؤكداً أن روسيا يجب ألا تترك هذه المنطقة القطبية الشمالية، بل عليها أن توسع أنشطتها فيها".

فى ضوء ما سبق حقق النفوذ الروسى فى المنطقة قفزات استراتيجية عسكرية واقتصادية وعلمية هامة فى محاولة من موسكو إثبات أحقيتها فى ثروات المنطقة القطبية واحكام سيطرتها

على ما تعتبره جزءاً منها وحق لها. ففى ١٥ سبتمبر ٢٠١٠ وقعت روسيا والنرويج معاهدة ترسيم الحدود بين البلدين في بحر بارنتس والمحيط المتجمد الشمالي، وهى المرة الأولى التى يتفق فيها بلدان قطبيان على تقاسم ثروات المنطقة. وفى أكتوبر ٢٠١٤ انتهت البعثة العلمية الروسية للمنطقة القطبية من مهمتها وعادت الى سان بطرسبورج لتقدم ما يدعم الطلب الروسى للأمم المتحدة الخاص بتوسيع حدود الدولة الروسية في الجرف القاري للمحيط المتجمد الشمالي بحوالى ١.٢ مليون كيلومتر مربع. وكانت اللجنة الخاصة بالجرف القاري التابعة للأمم المتحدة قد رفضت طلب روسيا الذي تقدمت به عام ٢٠٠١ بهذا الخصوص لعدم كفاية المعلومات والمعطيات المطلوبة التي تضمنها.

على الصعيد التنموى والاقتصادى، بدأت روسيا منذ عام ٢٠١٠ فى استغلال الطريق القطبى المحاذي لسواحلها على المحيط المتجمد الشمالي لنقل مصادر الطاقة الروسية الى الأسواق المختلفة، وأكد الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، خلال مشاركته في المنتدى الدولي لمنطقة القطب الشمالي فى ٩ أبريل الماضى عزم بلاده مواصلة تطوير طريق الملاحة الشمالي وزيادة تدفق البضائع من خلال هذا المسار، موضحاً أن حركة الشحن سجلت رقما قياسيا عام ٢٠١٨، حيث بلغت ٢٠ مليون طن، وهو ثاني أعلى مستوى تسجله منذ عام ١٩٨٧. وشدد على أن روسيا ماضية في تطوير البنية التحتية على طول الممر الشمالي، لتحقيق هدفها بحلول ٢٠٢٥، وهو زيادة تدفق البضائع إلى ٨٠ مليون طن. وخصصت الحكومة الروسية للعام الحالي ٤٩.٥ مليار روبل لتنمية طريق الملاحة الشمالي، على أن يصل هذا الرقم بحلول ٢٠٢٢ إلى ١٤٥.٦ مليار روبل.

كما أعلن الرئيس بوتين أن أسطول كاسحات الجليد الروسي سيضم، بحلول عام ٢٠٣٥، نحو ١٣ كاسحة جليد ثقيلة، بما فيها ٩ كاسحات جليد نووية، وفى ٢٥ مايو الماضى تم إنزال كاسحة الجليد النووية الثالثة، من مشروع ٢٢٢٢٠ "أورال" إلى الماء في حوض مصنع البلطيق بسان بطرسبرج، لتصبح كاسحات الجليد من طراز "إل-كا-٦٠"، أساسا لأسطول كاسحات الجليد الروسي في القطب الشمالي، ويتفوق هذا الطراز عن نظيره القديم "أركتيكا" حيث يأخذ تصميمها في الاعتبار جميع التطورات التكنولوجية فى المجال. كذلك، اقترح الرئيس بوتين على المستثمرين الأجانب الاستثمار في إنشاء مينائين كبيرين في مطلع الدرب البحري الشمالي بمدينة

بيتروبافلوفسك-كامتشاتسكي الروسية بأقصى شرق روسيا، وفي نهايته، مدينة مورمانسك الروسية في شمال غرب روسيا.

من ناحية أخرى، بدأن روسيا مجموعة من المشروعات الضخمة فى المنطقة ستجعل منها قاعدة نفطية أساسية لروسيا. ومنها على سبيل المثال مشروع خط نقل النفط "المنطقة القطبية – بوربيه" الذى بدأ العمل به عام ٢٠١٢، وهو أنبوب جديد لنقل النفط القطبي الروسي إلى أسواق الغرب والشرق معاً حيث أن النفط القادم عبر هذا الأنبوب سيوجه من محطة "بوربيه" إما إلى السوق التقليدية للنفط الروسي فى الغرب، أو إلى أسواق شرق آسيا الجديدة على شاطئ المحيط الهادئ. وتصل طاقته إلى ٤٥ مليون طن من النفط سنويا ويعد مشروعا بالغ الأهمية لاستثمار ثروات أقليم يامال أبرز مكامن النفط والغاز في روسيا.

كما اتفقت شركتى "روس نفط" الروسية و"بي بي" البريطانية عام ٢٠١١ على تشكيل شركة مشتركة للتنقيب وتطوير ٣ حقول مرخصة تصل مساحتها الاجمالية إلى حوالي ١٢٥ ألف كيلومترا مربعا شمال روسيا في منطقة من المحيط المتجمد الشمالي تصل احتياطياتها إلى ٥ مليارات طن من النفط وحوالي ١٠ تريليونات متر مكعب من الغاز، والتنقيب عن النفط في ستة آبار في الجرف القاري لبحر كارا في القطب الشمالي من المتوقع أن يبدأ انتاجها عام ٢٠٢٧. وتم فى أغسطس ٢٠١٤ البدء فى إنشاء المنصة البحرية "ويست ألفا" للتنقيب عن النفط والغاز في بحر كارا المتفرع من المحيط المتجمد الشمالي في شمال سيبيريا بالتعاون بين شركتي "روس نفط" و"إكسون موبيل" الأمريكية، والذى يعتبر من أكبر المشاريع العالمية فى هذا المجال.

دعماً لهذه المشروعات التنموية الهامة رست أول محطة نووية عائمة في العالم، "أكاديميك لومونوسف"، فى ٢٧ سبتمبر الماضى، في نقطة تمركزها الدائم على شاطئ شبه جزيرة تشوكوتكا في مدينة بيفيك بأقصى شمال روسيا وتحتوي على مفاعلين نوويين تبلغ طاقة كل منهما ٣٥ ميجاوات، وستستخدم المحطة بشكل رئيسي لإمداد منصات النفط بالطاقة، فيما تتوسع روسيا شمالا نحو القطب الشمالي للتنقيب عن النفط والغاز، ما يجعل الحاجة إلى الكهرباء أمرا ضروريا في هذه المناطق النائية وتعتبرها روسيا خطوة لتحقيق التنمية المستدامة في القطب الشمالي.

أما على الصعيد العسكرى فقد أقام الجيش الروسي في عام ٢٠١٣ أحدث قاعدة بالقطب الشمالي، أطلق عليها اسم "النفل الشمالي" الواقعة في جزيرة كوتيلني، بأرخبيل جزر نوفوسيبيرسك،

كذلك قاعدة ناجورسكو بجزيرة ألكسندرا لاند، بأرخبيل فرانز يوسف. وفى عام ٢٠١٤ استحدثت هيئة الأركان العامة الروسية قيادة استراتيجية موحدة تعتمد على أسطول البحر الشمالي الروسي للدفاع عن مصالح روسيا في المنطقة القطبية. وقامت بإعداد قاعدة شمالية جديدة في بحر كارا قرب المحيط المتجمد الشمالي وأرسلت إليها ست سفن تابعة للأسطول الشمالي الروسي، بينها سفينتا إنزال بحري ومدمرة برفقة كاسحتي جليد نوويتين فى سبتمبر ٢٠١٤، وأجرت السفن خلال الرحلة مناورات في عرض البحر فيما نفذ بحارتها تدريبات قتالية بالذخيرة الحية في إطار ما يعرف بالاستنفار القتالي.

كما شهدت المنطقة تكثيف لوجود القوات الجوية الروسية حيث تم تشكيل لوائين شماليين لسلاح الجو الروسي، وتقوم أطقم قاذفات القنابل الاستراتيجية الروسية بدوريات جوية منتظمة فوق مياه المحيط المتجمد الشمالي وذلك في إطار مهام الردع الاستراتيجي فوق المياه المحايدة في المنطقة ومناطق أخرى. وصرح مدير عام شركة "مروحيات روسيا"، أندريه بوجينسكي، فى ٢٧ فبراير الماضى، بأن شركته قد صنعت في وقت سابق نسخة قطبية من مروحية "مي-٨"، وتعمل على تصميم نموذجين قطبيين من مروحيتي "مي-٢٦" و"مي-٣٨". وقامت روسيا بنشر منظومات دفاعية جوية جديدة من طراز "إس ٤٠٠" على أرخبيل "نوفايا زيمليا" في القطب الشمالي الأمر الذى سيزيد مساحة المجال الجوي الخاضعة للسيطرة الروسية في القطب الشمالي بشكل كبير.

وفى ٥ يناير الماضى أعلنت وزارة الدفاع الروسية أنها أعادت خلال السنوات الماضية تأهيل ١٩ مطارا عسكريا في الدائرة القطبية الشمالية، وأنها ماضية في تعزيز البنى التحتية اللازمة للردع النووى فى المنطقة، وإنها مستمرة فى إنشاء مواقع وحدات الرادار ونقاط توجيه الطيران في جزيرة فرانجيل وشميدت، وتم البدء فى إنشاء مطار قطبي شمالي في أرخبيل فرانز يوسف.

وأشار نائب رئيس إدارة مؤسسة "روس كوسموس" الفضائية الروسية، فاليري زايتشكو، فى ٣ أكتوبر الجارى أن مؤسسته قررت إطلاق سلسلة من الأقمار الصناعية المزودة برادارات خاصة لتوسيع إمكانات المراقبة الفضائية الروسية لمنطقة القطب الشمالي وضمان المراقبة بشكل دائم ومستمر في أي ظروف للطقس وطيلة العام وذلك بحلول عام ٢٠٢٥ حيث أن مجموعة الأقمار الحالية تسمح بتلقي صور فوتوغرافية لمنطقة القطب الشمالي مرة واحدة كل يوم كما إن الطقس

ووقت الليل الذي يدوم ٦ أشهر في منطقة القطب الشمالي، يجعلان التقاط الصور الفوتوغرافية أمرا مستحيلا أحيانا.

فى ضوء ما تقدم ستظل روسيا "سيدة القطب الشمالى" و"سيدة الجليد"، وسيعزز التنسيق الروسى الصينى من هيمنة موسكو على مقاليد الأمور القطبية، ويزيد من التحديات التى تواجهها الحركة الأمريكية فى المنطقة، ليستمر التنافس القطبى كأحد محاور الصراع والتنافس الدولى فى القرن الحادى والعشرين.